الفصل العاشر

طريق الحج

أثار إعجابي أثناء إقامتي بحضرموت الاهتمام الشديد الذي أبداه الجميع بمختلف طبقاتهم الاجتماعية برحلتنا بالسيارة عبر الصحراء من نجران السعودية إلى اليمن. ذلك أن هذه الرحلة أثبتت إمكانية السفر إلى مكة بالسيارة كبديل مفضّل على الرحلة الشاقة باجمال إلى ساحل البحر، ومن ثم بالباخرة إلى جدة. ولعل الحجيج من النساء هن الأكثر تضرراً من السفر بالباخرة بسبب إجراءات الحجر الصحي. وعلى وجه الخصوص بالنسبة للنساء. ولقد تأكد لي -بما لا يدع مجالاً للشك- بأنه لو تم فتح طريق بري يكون ملائماً لحركة السيارات، فإن الآلاف من المسلمين سيؤدون الفريضة سنوياً بدلاً من المئات الحاليين. ولقد تمت مناقشة الموضوع بإسهاب في تريم، ولقد عُرضت علي نسخ من مجلة عربية تصدر في باتافيا اسمها (الرابطة)، صدرت في يناير ويونيو عام ١٩٣١م، وتحتوي على مقال من جزأين يصف طريق قافلة حج من تريم إلى مكة في عام ١٨٦٤-١٨٦٥م، وكان طريق القافلة متعرجاً إلى حد ما، واستغرقت الرحلة سبعة أسبيع بما فيها التوقف والراحة، غير أن كاتب المقال أشار إلى أنه إذا سلك المسافرون طريقاً آخر يسير عبر نجران فسوف تكون الرحلة على ثلاثين مرحلة، بدلاً من الخمس والثلاثين مرحلة الحالية: أي ما بين خمسة إلى ستة أسابيع، بما في ذلك فترات التوقف والراحة. ولقد أثبت بالفعل استخدام هذا الطريق بواسطة السيارات بين مشينيقة العبر وطريق آخر من مشينيقة إلى نجران ومن ثم مكة. وحقيقة الأمر أننا لم نجرب الطريق من آبار العبر وبوابات حضرموت، وعليه فقد خططت للسفر على هذا الطريق إلى أبعد نقصة يمكن الوصول إليها في اتجاه آبار العبر ثم محاولة اكتشاف طريق عبر الرمال للعودة إلى شبوة على طريق يختلف عن طريقنا القديم الذي سافرنا عليه.

وفي يوم ١٨ سبتمبر وصلنا إلى هينن على أساس تنفيذ الخطوة المذكورة، ومع أننا لم نعلن مسبقاً عن قدومنا، ومع غياب ابن مرتع فقد أعلنا رغبتنا في مواصلة

الرحلة غرباً، مع إمكانية الانتظار قليلاً. ولن نلوم غير أنفسنا على وجبة نصف النهار الهزيلة والمكوّنة من خليط من البلح والأرز وسمك مجفف مطبوخ، وهو الغذاء الرئيس لسكان هذه المناطق ما لم يكن هناك ضيفٌ، وكانت هذه الوجبة كافية لإقامة أودنا، خاصة بعد أسفارنا وإقامتنا المترفة في حضرموت. قام سكرتير ابن مرتع بتقديم واجبات الضيافة والاستقبال، وكانت غرفة الضيوف تعج بالخدم والقرويين، وقد لاحظت أن العديد منهم كان يمضغ التبغ الممزوج بالرماد[1].

وقد كان بين الحضور رجل كان قد وصل قبل فترة وجيزة من مستوطنة ريدة الصيعر، وكان يحمل -على أمل التكسب والربح- علبة مسطحة أو قدر صغير مثبت بسلك معدني وجد على طائر لونه أبيض -ربما يكون طائر اللقلق- والذي أصيب بطلق ناري. ولأن الطائر كان مجروحاً فقد ظل حياً، إلا أنه مات بعد فترة متأثراً بجراحه، ولهذا لم يتمكن الرجل من إحضاره معه بسبب تحلل الجثة. وقد وجدت رسالة داخل العلبة فيها تفاصيل عن المنطقة التي أتى منها الطائر في رومانيا، حيث تم تطويقه وربط العلبة حول عنقه بهذه الطريقة البدائية. قدمت للرجل ريالاً مقابل احتفاظي بالرسالة المكتوبة، إلا أنه قد استنتج أن قيمة الرسالة أكثر من ذلك بكثير فتمنَّع من المقايضة واستردد ريالي وأعدت إليه العلبة بمحتوياتها بعد أن حفظت عن ظهر قلب محتويات الرسالة.

وبعد قيلولة قصيرة وعند الساعة الثالثة والنصف مساء كنت جاهزاً لمواصلة الرحلة. وكان أن أوصيت بتخفيف حمولة السيارتين وذلك باستئجار جمال ترحيل لحمل بعض مرافقينا إلى شبوة بمن فيهم بلال مساعد الميكانيكي؛ وعندها أعلن محمد -سائق الشاحنة الخفيفة- عن نيته إنهاء خدماته معي، خاصة وأننا بالقرب من ديار أهله في هجرين مما يمكنه من تنفيذ تهديده المبطن هذا بدون عقاب يذكر إذا ما حرم

(١) وهي ما تعرف عند أهل المنطقة بـ «السويكة» وقد تقدم الإشارة إليها (ص٢٧٧). (المراجعون).

من خدمات مساعده، وعليه فقد استجبت للتهديد ووافقت على بقاء المساعد مع الاستغناء عن خدمات أحد البدو وكمية كبيرة من البضائع التي حملها المرافقون بغرض البيع والتكسب منها في نجران. ومع ذلك لم أكن على استعداد للمخاطرة وتعريض الشاحنة الخفيفة لعطب آخر. وبما أنني سأتكفل بنفقات الترحيل بالجمال، فلم أقبل من الرجل الحق في التذمر أو الشكوى.

أفادنا ناصر بن شماخ بأنه يعرف الطريق جيّداً وعليه فقد صار دليل الرحلة، وبهذه الصفة الجديدة شاركني في المقعد الأمامي للسيارة. وما إن قطعنا حوالي الميل إلا ووجدنا أنفسنا تائهين وسط كثبان الرمال، وعندها عدنا أدراجنا حتى وجدنا آثار الجمال وتبعناها. عبرنا قرية أرض آل حويل التي تقع تحت جرف قمران، وهو جرف شديد الانحدار، ثم عبرنا قرية صغيرة أخرى وسلكنا بعدها طريقاً يتوسط المسافة بين الجرف وطرق الكثبان الرملية، وتبلغ المسافة بينهما حوالي ربع الميل. تمتد البقعة الرملية أمامنا على هيئة أصابع طويلة وتواصل انتشارها حتى سفوح المنحدرات الصخرية الشاهقة. وبعد أن سرنا مسافة قصيرة اكتشفنا أننا ندور في حلقة مفرغة وسط الكثبان الرملية المتحركة، وكان علينا -وللمرة الثانية- أن نعود أدراجنا سالكين طرقاً يمتد على أطراف المنطقة الرملية حتى وصلنا مشارف قرية صغيرة بائسة اسمها ربيعة، تطل عليها من جانب الجرف صخرة جيرية مستقيمة ذات منظر أخّاذ وتسمى "عُرف الديك" لقد قطعنا مسافة عشرة أميال منذ أن تحركنا من هينن، ولو كان سيرنا في طريق مستقيم فإن المسافة الحقيقية تبقى سبعة أميال فقط. لقد عانيت اليوم ما فيه الكفاية، ثم إن الشمس كادت أن تغيب، لذا فكرت في إقامة معسكرنا وقضاء الليلة في هذه القرية والتي تبدو مكاناً مناسباً للراحة والنوم، إلا أن مساكنها المتباعدة جداً والتي تشبه الحصون بدت خالية من السكان تماماً، بعد أن رحل أهلها بحثاً عن الكلأ والماء، خاصة بعد هطول الأمطار خلال الشهر الماضي.

وبينما نحن نشق طريقنا ببطء عبر القرية التي غطى بعض أجزائها العشب الأخضر بعد أن ارتوت الأرض بمياه الأمطار، لاحظنا حركة بأحد المنازل بالطرف البعيد للقرية توحي بوجود بعض الناس، وبينما نحن نقترب ببطء من المنزل ظهر رجل فوق سطح المنزل يحمل سلاحاً نارياً. أوقفت السيارة على بعد حوالي مئتي ياردة من المنزل ونزل ابن شماخ من السيارة في انتظار ترحيب الرجل بنا، بينما نزلت أنا من الجانب الآخر للسيارة ولاحظت أن الرجل قد أسند سلاحه على حاجز سقف المنزل ووجه فوهة البندقية نحوي مباشرة، وعندها انسحبت إلى مؤخرة السيارة بعيداً عن أنظار الرجل وفي هذه الأثناء حاول ابن شماخ أن يوضح للرجل نيتنا في قضاء الليلة هناك، وبعد فترة -خلتها دهراً- نزل الرجل من سطح المنزل وقرر استقبالنا. كان مضيفنا كبير السن بعض الشيء ولا يرتدي من الثياب إلا ما يستر عورته (الإزار)، إضافة إلى سلاحه الناري، وكان منفعلاً وهائجاً بعض الشيء ولا يوحي منظره العام بأنه سليم العقل تماماً. ومع ذلك أبدى شعوراً بالرضى والمودة والاستعداد لاستضافة هؤلاء الغرباء، وبعد هنيهة بدأ سكان المنزل في الظهور! وكان أول الخارجين من الدار شابان في مقتبل العمر، ثم امرأة مسنة يبدو أنها والدتهما، وظهرت أخيراً شابة ذات حسن وجمال وهي ابنة العجوز والتي يبدو أنها استثمرت لحظات التوجس والترقب في إكمال زينتها حتى تظهر كأجمل ما تكون أمام الغرباء! كانت الفتاة ترتدي ثوباً جميلاً مصبوغاً بلون نيلي ومثبتاً عند الخصر بحزام مطرز ولم تكتف الفتاة بهذا، بل وضعت العديد من الحلي الفضة اللامعة. ويبدو لي أنها كنت تأمل -مجرد الأمل- أن يتقدم أحدنا ليطلب يدها. وعلى العموم فقد كانت الفتاة لطيفة وودودة بقدر ما أعطاها الله من جمال فريد، وقد كانت تتحدث بطلاقة وبدون أي خجل أو حرج. وربما لا يكون لها أي اتصال يذكر بنساء أخر خارج نطاق طائرة العشيرة الضيّق. تقدمنا بدعوة الفتاة وأمها لتناول طعام العشاء البسيط معنا وكان

مكونا من أرز إلا أنهما فضلتا مراقبتنا ونحن نأكل ويبدو أنهما لا تفضلان الأرز كطعام، وبما أن خرافهما ترعى بعيداً عن الديار، فلم يتيسر لنا الحصول على أي نوع من اللحم.

ينحدر سكان قرية ربيعة من آل جذنان وهي إحدى بطون عشيرة نهد. أخبرنا علي -الرجل العجوز- بأن لديه ثلاثة من أبناء إخوته يعملون في كيسمايو بالصومال الإيطالي، وأنهم يراسلونه ويمدونه بمساعدات مالية لتغطية نفقات الأسرة، وبهذا فالرجل مشدود -بصورة غريبة- إلى العالم العريض البعيد عن نطاق وعيه وإدراكه، وقد استمع الرجل وابنته -في تلك الليلة- ولأول مرة إلى صوت العالم يتحدث وسط أراضيهم اليباب، ومما يؤسف له أن الإرسال كان مشوشاً ومع ذلك فقد تعرف الرجل وابنته على لغتهم التي سمعوها من المذياع وقد اندهشوا أيما دهشة بما سمعوا. وبعد أن أنهيت الجلسة واستلقيت استعداداً للنوم، بدأت استعراض أحداث هذا اليوم الشاق، وبدأنا الاستعداد للرحيل في جو مفعم بالرضى والأماني الطيبة.

كان خط سيرنا العام في اتجاه الجنوب الغربي نحو صخرة القليعة المنعزلة، وقمتي ثكمين على مصب وادي سر. ويقع الجرف وكثبان الرمال خلف طريق سيرنا بحوالي ميل واحد تقريباً. واصلنا السير فوق هضبة تكسوها -إلى حد ما- أشجار الستط القصيرة وبعض الشجيرات الصحراوية الأخرى، وبعد أن قطعنا حوالي ستة أميال مررنا قريباً من بئر رشيدة وكانت تقع على يميننا، وبعد ذلك بقليل تخطينا قصر كردان، وهو يعد حصن قبيلة نهد. ويقع الحصن المذكور على يسارنا، وبعد مسافة خمسة أميال أخرى وصلنا بئر الجديدة وهي مثل القلعة من ممتلكات شخص اسمه عبدالله بن مبارك الكردان. يبلغ عمق البئر ثلاث عشرة قامة، وهي ذات فوهة ضيقة وقصية مصفوفة بالحجارة. وبعد حوالي ميل آخر في اتجاه الشمال الشرقي وصلنا إلى وادي مضلاب المنحدر من اتجاه الشمال بين أراضي مهباد -بعض الأحيان تسمى مضلاب- وميس، ويتلاشى الوادي رويداً رويداً في الرمال. وتدل غزارة المياه في

البئرين المذكورتين والهضبة المغطاة بالعشب الأخضر على الأمطار الغزيرة والسيول التي غمرت هذه المنطقة مؤخراً.

يمتد الوادي في هذا السهل ليلتقي بوادي سر الأكثر أهمية، حيث إنه يمثل شريان التصريف الرئيس للهضبة الشمالية والرافد الأكثر نشاطاً في أقصى الجهة الغربية ليلتقي بوادي حضرموت من الناحية الشمالية. ويمتد مجرى وادي سر حتى السهل الواقع بين هضاب ثكمين بالناحية اليسرى وخشم العفر بالناحية اليمنى، ويقع هذا الوادي في اتجاه الشمال الغربي من السهل الذي نسير فوقه الآن وهو -أي السهل- يشكل دلتا الوادي الذي تكسوه أشجار السنط الكثيفة. هناك خط من شجر الحرمل والفرد وبعض الأعشاب المختلفة يشكل المعلم الرئيس لمجرى مياه الوادي المكوّن من الرمل والحصى. ويوجد بجانبه وعلى هضبة صغيرة حصن بدر بوطويرق -ويسمى أيضاً حصن سر-. لقد لاحظت أن طريق ريدة الصيعر، المركز الرئيس للفرع المستقر للقبيلة الموالية للشيخ يسلم بن جربوع، يعتلي الهضبة عن طريق عقبة شاهقة، لكن يبدو أنها ليست صعبة. وتقع قرية ريدة الصيعر في وادي المخية، وهو أحد أودية الهضبة التي تصب في اتجاه الشمال، وينتهي في السهل الكبير الذي يكثر فيه الحصى، وهو يمثل الحد الفاصل بين القرية والربع الخالي.

توجد أيضاً سلسلة من الجبال المنخفضة عند الطرف الغربي للدلتا، وقد تخطيناها عبر ممر ضيق وانحدرنا بالجانب الآخر حتى وصلنا الحصن الوحيد بتلك الجهة، وتحيط به أكواخ قليلة مصنوعة من أغصان مضفورة بسيقان القصب والآبار الأربعة التابعة لحصن آل خويران. وتتميز هذه الآبار بفوهات ضيقة مع ضفيرة الحجر على طول البئر، وبها مياه وفيرة على عمق يتراوح بين ١٨-٢٠ قامة. التقينا في هذا الموضع مع مرافقينا الذين استقلوا الجمال من هينن، هذه الجمال يمتلكها صاحب الحصن الذي قرر عدم مواصلة الرحلة معنا لمقابلة زوجته والاطمئنان عليها، وكفت

الزوجة وقتها تقوم بسقاية أغنامها عند البئر، وكنت أتوق إلى أكل لحم طازج، إلا أن الانتظار يعني ضياع وقت ثمين.

استرحنا حوالي الساعة واستنفدت خلالها ملء ترمس من الشاي بينما كان المرافقون الآخرون يشربون القهوة. وقد أخبرني مضيفنا عبد الله آل خويران أن المستر بيرن لم يصل في أسفاره إلى النقطة التي نجلس فيها الآن، وأنه عاد أدراجه من جوار بئر رشيدة. يقع أسهل الطرق لعبور الأرض الرملية -الجزء المعروف ببئر بايوس، احتمال أن يكون مشتقاً من اسم بئر قديمة بالمنطقة- على بعد حوالي ميلين أو ثلاثة في اتجاه الجنوب الغربي من آل خويران. والآن أستطيع أن أفهم لماذا انسحب البدو المرافقين للمستر بيرن عند السهل ذي الأشجار الكثيفة وسلكوا ذلك الطريق إلى مدينة شوة.

بدأت الأشجار تتباعد عن بعضها فوق السهل، بينما كنا نحن نقترب من بئر الجديدة على بعد عشرة أميال غربي آل خويران. وجدنا فوق البئر مجموعة من الرعاة مع ماشيتهم من القمازين نهد ومعهم عدد قليل من الرعاة من المطاحلة -بطن آل زيد من قبيلة الكرب-، وبينما نحن في سيرنا تقدمت مجموعة مكوّنة من ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الرعاة يحملون بنادقهم في حالة استعداد لكنهم سرعان ما تعرفوا على شخصية عبد الله آل خويران الذي كان جالساً معي في المقعد الأمامي للسيارة كدليل بدلاً عن ابن شماخ. استقبلنا الرعاة بترحاب شديد وكانت بينهم بعض النساء اللاتي كن يسحبن الماء من بئر بعمق خمس وثلاثين قامة. تقع هذه البئر على طرف الرمال مباشرة وتفصل بينها وبين الكثبان العالية مسافة تبلغ حوالي ربع ميل فقط. وعلى الجانب الآخر يرتد الجرف إلى خليج شبه دائري واسع يقع بين خشم معول بالناحية الشرقية وطرف العين بالناحية الغربية. وينحدر عبر هذا الخليج واديان هما: وادي ثاني ووادي عكبان. وتُغطي جزء الطرف الغربي لهذا الخليج جبال برق العين وهي جبال مبعثرة ومنخفضة الارتفاع، أما وادي أم السمر فيقع بين جبال برق العين وجبال طرف

العين وينحدر الوادي في اتجاه التربة الرملية. تكسو دلتا وادي ثاني وعكبان شجيرات وأعشاب شبه يابسة ويبدو أنه لم تنزل عليها أمطار منذ فترة ليست قصيرة.

توقف حجيج عام ١٨٦٤-١٨٦٥م عند هذا الموقع في منتصف النهار بعد وصولهم من قعوضة عبر رهضان -على طريق شبوة- وقضوا ليلتهم في بايوس قبل مجيئهم بطريق دلتا سر ومن هنا واصل الحجاج سيرهم بطريق وادي المنفلقة وقرن الذياب حتى آبار العبْر.

دخلنا الآن سهلاً واسعاً وأجرد تتفاوت طبيعة أرضه بين الرمل والحصى وتتواجد فيه غزلان بأعداد كبيرة. شاهدنا ظبية من نوع العفري وحاولت مطاردتها بالسيارة إلا أنها دخلت منطقة وعرة لكننا كنا أكثر حظاً مع ظبية من نوع إدجي بعد أن أطلقت عليها طلقة من سلاحي الناري عيار ٤١٠ (والطلقة رقم ٧) بعد مطاردة قصيرة بالسيارة، وبعد حوالي ستة إلى سبعة أميال من بئر الجديدة وصلنا إلى بطن وادي أم السمر؛ حيث أصبح الطريق وعراً والسير صعباً بسبب الأشجار الكثيفة والغدران. كان طريقنا بهذا الوادي قريباً من جبل طرف العين ومن هنا ينحرف الجرف في اتجاه الشمال مسافة عشرة أميال أو تزيد قبل أن يتخذ مساره الغربي في اتجاه عبر وادي العبر وبعده يتلاشى في طرف حافة مصاير. وتتوافر هنا مياه الينابيع وأشجار النخيل التي لا تحتاج إلى سقاية في أعلى وادي أم السمر أو في واد جانبي بالناحية الشرقية وتسمى هذه المنطقة العين، ويمكننا أن نرى بوضوح معالم العبر على الجانب البعيد لخليج صحراوي واسع يمتد وتره من طرف العين حتى سلسلة جبال مصاير.

وبعد مسيرة أميال قليلة من أم السمر وصلنا إلى واد آخر اسمه وادي حجير. ويجتاز هذا الوادي السهل من الناحية الغربية لطرف العين وتنمو في هذا الوادي أشجار غزيرة وعشب أخضر وقد شاهدت بعض النساء مع أغنامهن إضافة إلى ثلاث

من الظباء، ذكر وأنثيين، تنام تحت ظل شجرة قريبة من حيث تقف النساء ويبدو أن ركبنا قد قطع على الظباء نومة الظهيرة الهادئة، لهذا انطلقت بسرعة البرق وأسرعنا نحن خلفها وركزنا على ذكر الظبي الذي كان أمامنا بمسافة غير قصيرة إلا أننا تمكنا من اصطياده في نهاية الأمر. لدينا الآن ما يكفينا من اللحم لفترة معقولة. واصلنا سيرنا في اتجاه قرن الذياب وهي أبعد نقطة كنت قد خططت للوصول إليها في اتجاه العبْر. قطعنا مسافة ستة عشر ميلاً عبر سهل جو الطلع الذي تغطيه الرمال والحصى وكانت بعض أجزاء الطريق وعرة إلا أن سيرنا عموماً كان سهلاً وممتعاً مع اكتساء الأرض بالخضرة من وقت لآخر. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد الظهر وهو موعد الأكل والراحة.

تبعد منطقة قرن الذياب -والتي كنت أود أن تكون محطة استراحة الظهيرة- على بعد أقل من ميلين إلا أنه يفصلنا عنها شريط واسع من أرض جبلية، ولا يبدو أن الأمر يستحق مخاطرة تعرض سيارتنا لأي عطب أو تلف. وعلى كل حال فقد أصبح من الواضح تماماً أن طريق سيارات الحج لابد أن يدور حول هذه الأرض الوعرة وذلك بالاتجاه غرباً إلى وادي العبْر والسير في محاذاته حتى منطقة الآبار. وعليه انحرفنا جانباً عبر منخفض شبه مسطح تكسوه بعض الشجيرات التي استمتعنا بظلالها بنومة بعد الظهيرة التي استمرت حتى الرابعة مساءً. لقد قطعنا حوالي ستين ميلاً منذ أن غادرنا ربيعة في الصباح الباكر وقمنا بتفقد الطريق البري الذي سوف يسير عليه مستقبلاً حجاج حضرموت. بدأ سعد مباشرة سلخ إحدى الغزلان التي يكون لحمها وجبة دسمة سواء أكان مقليًا أم مشويًا وختمت هذه الوجبة بعلبة المانجو التي كانت من ضمن الهدية الشخصية التي قدمها لنا السيد أبو بكر. وقد سبق الوجبة وأعقبها كالعادة الشاي الذي لا يفارقنا أبداً.

عبد الله آل خويران شخصيته لطيفة جداً مع أنه كثير الكلام وقد أخبرني مرة أن إقليم نهد يمتد من منطقة قريبة من القطن بالجهة الشرقية حتى الخط الذي يربط بين

طرف العين وغالباً التي تقع هي الأخرى شمال وجنوب الحزام الرملي على التوالي. وغرب هذا الخط تحتل الكرب المنطقة التي تقع جنوب حزام الرمال بينما تشغل الصيعر المنطقة التي تقع شمال الرمال.

وتمثل الرملة ما يمكن أن يطلق عليه «الأرض التي لا مالك لها» أي المنطقة المشاعة للجميع مع أن الكرب تسيطر عليها سيطرة فعلية. ينحدر المنخفض -الذي توقفنا فيه- ناحية الشمال لمسافة ميلين تقريباً حتى يصل إلى جرف كبير تحت أرض خشم جاحم التي تقع على جانبها حدائق نخيل وينابيع جاحم والقليب. تابعنا سيرنا حول الجرف في اتجاه الشرق حتى وصلنا منطقة ماضيه (أم الضباء) التي تحفها حدائق النخيل التي تروى بمياه الينابيع، وبعدها وصلنا إلى أم الكلاب بأشجار نخيلها وينابيعها ثم باقم بأشجار نخيلها وينابيعها أيضاً، ثم عبرنا عجل ومليحان حتى طرف العين. هذه المناطق غير آهلة بالسكان وعلى الرغم من ذلك فإن إنتاج مزارع النخيل - التي سبق الإشارة إليها- جيد ووفير. وقد علمت أن ملاك هذه الحدائق من قبائل الصيعر يحضرون في مواسم انصرام لجني التمور ثم يعودون أدراجهم بأسرع ما يمكن وذلك خوفاً من الأبخرة التي تنبعث من الينابيع المتدفقة وأن البقاء والعيش في هذه الأودية يعني لهم الموت بعينه.

واصلنا سيرنا بعد نومة القيلولة وعبرنا مجرى وادي جاحم الذي يتدفق من أعلى المرتفعات حتى دلتا حجير على مسافة قصيرة من الحزام الرملي. ثم واصلنا مسيرتنا في اتجاه الشرق حوالي ستة أميال فوق سهل من الحصى واسع حتى أصبحنا على بعد حوالي ميل واحد من أرض باقم حيث تمكنا من رؤية بعض حدائق النخيل المنتشرة في واديها. وتوجد في هذا الوادي أربعة ينابيع -وتسمى الغيل وتشمل المجاري المتدفقة منها- وهي: باقم، الجابية -وبها حصن غير مأهول-، أم الغريان وآل فرج. وتنمو في كل من هذه الينابيع حديقة نخيل يلاحق بعضها بعضًا. انحرفنا

الآن في اتجاه الجنوب على خط مواز للجرف، وسرنا أولاً عدة أميال فوق سهل منبسط من الحصباء حتى وصلنا وادي المنجور الواسع الذي تكسوه أشجار السنط والتياتات. ويبدو أن هذا الوادي أصبح نقطة تجمع للمياه المنحدرة من باقم والمرتفعات المجاورة لها، وتتدفق هذه المياه -عبر وادي المنجور هذا- حتى تلتقي بوادٍ آخر اسمه السيحات الذي ينحدر من خشم المنجور ويحتضن سفح الجرف حتى يصل طرف العين ثم يلتقي مع وادي حجر في طريقه إلى الرمال.

تبعد نقطة العبور المنحرف لوادي المنجور حوالي ثلاثة أميال وبعد ذلك أصبح طريقنا سهلاً ومن دون عوائق تذكر، ويمتد طريقنا فوق سهل تكسوه طبقة خفيفة من الحصى ويواصل امتداده غرباً على أطراف وادي العبر. ويسمى الجزء الشرقي من هذا السهل قحوضًا، ومن هنا وعلى بعد حوالي ثمانية أميال من باقم، عبرنا مساراتنا الخارجية ومن تلك النقطة سلكت طريقاً في اتجاه الجنوب نحو أطراف الرمال التي تبعد حوالي خمسة أميال. ويقع الخط الأول من الكثبان الرملية على بعد حوالي ميل آخر غير أنه لايبدو من الحكمة أن نتورط بالتوغل في هذه المتاهات الرملية ذلك أن الوقت قد تأخر بعض الشيء كما أن المنطقة خالية تماماً من أي أعشاب أو شجر، وبدأنا في التفكير فيما إذا كنا سنجد حطباً كافياً لتجهيز وجبة العشاء خاصة وأن معنا كميات كبيرة من اللحوم.

اتجهنا نحو الشرق على أطراف الحزام الرملي الذي تبرز منه نتوءات من الرمل الصلب. غابت الشمس من وراء ظهورنا وواصلنا سيرنا بدون استخدام مصابيح السيارة خوفاً من إثارة انتباه أي بدوي يكون في الجوار. وفجأة شاهدنا أمامنا وعلى مسافة قريبة أشكالاً داكنة كما لو كانوا مجموعة من الرجال على ظهور جمال. إلا أن عبد الله تعرف على هذه الأشكال وأفاد بأنها نوع من أشجار السنط تسمى (الركاب) على أساس تشابهها العجيب برجال يركبون جمالاً وكانت هذه الأشجار خضراء

بمعنى أننا لن نجد فيها الوقود الذي نحتاجه، وواصلنا سيرنا ثلاثة أميال أخرى -مسافة تسعة أميال منذ أن اتجهنا شرقاً- حتى وصلنا منطقة غزيرة بالأشجار في حوض أو منخفض يسمى رأس الخب. وكان علينا إقامة معسكرنا هنا لقضاء الليلة، شئنا ذلك أم أبينا؛ ذلك أن الظلام أصبح دامساً للحد الذي تعذرت فيه الرؤية تماماً ولم يسفر البحث المستمر عن أي عشب أو حطب جاف للوقود وعليه أوينا إلى مضاجعنا من دون وجبة اللحم التي كنا نمني أنفسنا بها! وكان معي على كل حال -وكالعادة- ترمساً مليئاً بالشاي الذي تم تجهيزه أثناء استراحة منتصف النهار. أعطيت مرافقي مجموعة من علب الأناناس واكتفيت بعلبة من سلطة الفواكه مع قليل من البسكويت ،وطوبى لك يا أبا بكر، وعند الساعة السابعة والنصف مساءً هبت رياح يصحبها رمل ناعم وغير مريح وكانت بعض السحب تغطي السماء ومع ذلك تمكنت من تسجيل كل ملاحظاتي ومشاهداتي ثم أدرت مؤشر الراديو واستمعت إلى موسيقى رقصة السبت كانت تُبث من فندق الملك داود في بيت المقدس وقد استمتع مرافقيّ، خصة البدو منهم بهذه الموسيقى. ولقد قضينا يوماً طويلاً وشاقاً قطعنا فيه مسافة تسعين ميلاً تقريباً وأظن أننا جميعاً أخذنا ما نستحق من النوم والراحة تلك الليلة.

وفي صباح اليوم الثاني قمت بجولة حول المنطقة لمشاهدة بعض المعالم التي من حولنا غير أن همنا الأول كان تدبير وجبة الإفطار وملء بطون خاوية تماماً ووجدنا من حطب الوقود ما يكفي أغراضنا من الشاي والشواء. كونت الأعشاب التي عسكرنا حولها جزيرة واسعة منعزلة وسط بحر من الرمال المتحركة ببطء. وتوجد كثبان الرمل على بعد حوالي ميل واحد في اتجاه الجنوب بمنطقة تسمى شقاق الحرمل. ومن وراء هذه المنطقة وعلى مسافة بعيدة تمكنت من رؤية أعلى أراضي مجوعة وقويم ويمتد خط وادي أم السمر بأشجاره الكثيفة في منطقة داكنة من طرف العين حتى يصل حافة الرمال، وقد خمنت أننا لا نبعد كثيراً عن منطقة بئر الجديدة. لقد كانت لدي بعض

المحاوف من عبور الحزام الرملي الممتد أمامنا، إلا أن عبدالله الذي يعرف المنطقة جيداً أكد لي أننا لن نواجه أي عقبات أو مشاكل، ولم يتحرك ركبنا إلا حوالي الساعة التاسعة إلا ربعاً صباحاً. سرنا أول الأمر مسافة قصيرة على أرض رملية سهلة ومتموجة حتى وصلنا إلى حزام واسع تكسوه كثبان منخفضة وبدلاً من أن ننحرف جانباً لكي نتحاشاها، اندفعت وسط اثنين من هذه الكثبان وكنت أواصل القيادة بسهولة وأمان إلا أن محمداً -سائق السيارة الأخرى- اختار مجرى مغايراً وغرزت سيرته في رمال ناعمة. استغرقنا بعض الوقت حتى خلصنا السيارة من الرمل. ثم تقدمت سيارة محمد مرة أخرى متتبعاً بعض المجاري المتداخلة بطريقة سهلة، وانحرفنا تدريجياً من الشرق إلى اتجاه الجنوب الشرقي حتى وصلنا سهلاً رملياً ممتداً وكانت كثبان الرمل العالية على مسافة ليست بعيدة على جانبي طريقنا.

وبعد أن قطعنا مسافة أحد عشر ميلاً من نقطة انطلاقنا وصلنا إلى شبه وادي، أحواض طينية رملية متتالية تكسوها طبقة خفيفة من الحصى وبعض الشجيرات التي تتعرج عبر متاهة الروابي والكثبان الرملية. تسمى هذه المنطقة الفوة (الفم أو الممر) وبينما كنت أسأل نفسي متى الخروج من هذه المتاهة لمواجهة الصعاب والمشاكل الحقيقية التي تنتظرنا أخبرني عبدالله أن العبور قد انتهى وخاطبني عبدالله «انظر إلى تلك المنطقة ذات الحشائش»، وأردف قائلاً: «تلك هي مستوطنة عدة التي حدثتك عنها». وقد سبق أن أخبرني عبدالله والآخرون عن بئر حمد والأطلال التي تحيط بها والتي يرجع تاريخها إلى قوم عاد في عصور ما قبل التاريخ وفي بحثهم وسط هذه الأنقاض وجد العرب القدماء آثاراً قديمة مثل تمثال من الذهب لحصان وسيفين وأشياء أخرى. ومن الواضح أن هذه الآثار القديمة قد أرسلت إلى صنعاء أو حضرموت للبيع والتكسب واشتهر المكان وسط السكان المحليين بأن به كنوزاً مدفونة مع العلم أنه لم يرد لهذا الأمر ذكر في أوروبا.

لم نستغرق وقتاً طويلاً للوصول للأطراف الشمالية للموقع الأثري وهو ذو قيمة تاريخية مهمة. وتوجد العديد من الركائز والدعائم المغطاة بالحجر مع بقايا بناء صلب وكتل فخارية غير مصقولة، مع معثورات أخرى مختلفة. لقد تم بناء هذا الموقع على هيئة شهب مربعة طول كل ضلع منها حوالي نصف ميل أو أكثر، ومن الواضح أن البناء قد تم على أرض مرتفعة ذلك أن أطرافه تبدو مرتفعة عن بقية السهل المنبسط وربما كان مركزاً زراعياً -في العصور القديمة أوالقرون الوسطى- على ضفاف وادي دُهر السفلية وبسبب الزحف الصحراوي قد هجره سكانه بعد أن صعبت إن لم تتعذر الزراعة في المنطقة. وعلى كل حال فإن المنطقة التي نتحدث عنها تقع في خط وادي دهر. بينما يدخل وادي رخية المنطقة الرملية على بعد مسافة في اتجاه الشرق. ومن المحتمل أن تلقي الأواني الفخارية والآثار الأخرى بعض الضوء على تاريخ هذه المستوطن التي ربما يثبت أنها واحدة من العديد من المدن القديمة الضائعة، غير أنني لم أعثر على أي شيء من قبيل النقوش وسيكون من الصعب تحديد ومعرفة المكان. ويبدو أن الجهة الجنوبية لهذه المنطقة كانت محصنة تماماً للحماية من آثار سيل وادي دُهر ويمتد السد الترابي إلى الجهة الغربية أيضاً. أما الزاوية الشمالية الغربية التي تعلو بئر حمد فيبدو أنها كانت الحي السكني وتتناثر فيها العديد من بقايا أوان فخارية وقطع أثرية أخرى وقد جمعت ما استطعت من هذه الآثار وبعد ذلك اتجهت إلى البئر حيث اتخذ مرافقي معسكرهم وبدؤوا تجهيز وجبة الغداء بما تبقى من لحوم الغزلان التي اصطدناها بالأمس.

يوجد حصن طيني صغير تم تشييده لحماية بئر حمد التي تقع على مجرى أحد فروع وادي دهر المنحدر عبر الجانب الجنوبي للمنطقة الأثرية المهجورة حتى يصل فرع الوادي إلى منطقة مليئة بالأعشاب والشجيرات في محاذاة طرف الرمال. ويبلغ عمق البئر ثمانية عشر رجلاً (قامة) وبها ماء وفير حلو المذاق، وقد وجدنا فوق البئر ثلاث نساء ورجلاً من قبيلة نهد يسقون خمسة جمال ويرددون أغانيهم وأهازيجهم المعتادة

هياء هبوبا، هيا، هبا. شاركنا الرجل طعامنا بينما نهضت من مكاني حول المائدة وحملت فخذاً من لحم الغزال قدمته للنساء كما قدمنا لهن بعض الأرز إلا أنهن لم يرغبن فيه واكتفين باللحم. لقد أكلت نصف جوزة هند أثناء فترة انتظار تجهيز الطعام وكانت هي آخر ما تبقى من زادنا الذي حملناه معنا من مدينة المعدي، إضافة إلى علبة يوسفي وكوب شاي. لقد علمتنا حضرموت الإسراف والبذخ. وارتفعت درجة الحرارة أثناء الظهيرة وبلغت ١٠٤° فهرنهايت عند الساعة الثالثة مساءً إلا أن نسيماً عليلاً هب علينا ولطف الجو كثيراً.

استأنفنا سيرنا وعبرنا حاجزاً منخفضاً تكسوه الحجارة في سهل رملي ممتد تعلوه مجموعة من نتوءات متشابهة تمتد حتى أطراف المدينة القديمة. ويجوز أن تكون بقايا سد قديم أقيم عبر هذا الفرع من وادي دهر لأغراض الري، عبرنا الآن سلسلة من الكثبان الرملية المتموجة المغطاة ببعض العشب حتى وصلنا سهلاً تكسوه طبقة من الحصى. ويوجد على الجانب البعيد من هذا السهل كثيب رملي يمتد من خشم مجوعة حتى الحزام الرملي مكوناً عائقاً على طريق سيرنا. كانت الرمال التي نسير عليها صلبة ووصلنا سيرنا مع ذلك على طريق متعرج فوق كثبان رملية تقع بينها منخفضات صغيرة. وكلها تمتد في اتجاه الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. بعد ذلك واجهتنا كثبان رملية يصعب السير عليها بالسيارات، ولهذا غيرنا خط سيرنا حتى تخطينا هذه الكثبات تماماً ووصلنا سهلاً ممتداً ومتموجاً تتناثر فوقه بعض أشجار السنط وتغير الكساء الرملي تدريجياً إلى أرض حصباء وانتهت مع نهايات مجرى فريحة (دهر) برماله الناعمة الكثيرة وشجيرات منخفضة اكتست خضرة ونضارة بعد الأمطار التي هطلت أخيراً. بعد ذلك عبرنا سهلاً واسعاً تكسوه طبقة من الحصى وكانت بعض أجزائه وعرة بعض الشيء. وواصلنا سيرنا عبر هذا السهل وتخطينا رابية سحلال وكنت الشمس، من خلفها تقترب من الأفق مؤذنة بمغيب الشمس وقررت إقامة

معسكرنا في هذا المكان لقضاء الليلة هنا حتى أتمكن في صبيحة اليوم التالي من استكشافه من قمة الجبل.

كان السهل أجردَ وقاحلاً وكان لابد أن نستغني عن الطبخ ذلك المساء لعدم وجود حطب الوقود ومع ذلك لاحظت أن نباتات الفا الخضراء تغطي سطح المرتفع الذي نصبنا فيه معسكرنا. هذا النبات يوفر بيئة صالحة لتوالد الفئران ولهذا نصبت شراكي واتخذت من البسكويت الذي أحمله معي طعماً لهذه الفئران. وأعتقد أن هذه الفئران تعتمد في غذائها على بذور نبات الفا التي تسقط على الأرض. تقع هضبة قرن البنا التي استرحنا فيها في طريقنا إلى حضرموت على بعد عدة أميال في اتجاه الشرق، ويبعد عنا طرف الحزام الرملي بحوالي المسافة نفسها في اتجاه الغرب والشمال. استأذن عبد الله خويران لزيارة أهله وفارقنا عند بئر حمد للسير عبر الرمال إلى حيث تقيم عشيرته. لقد قطعنا حتى الآن حوالي عشرين ميلاً منذ مغادرتنا البئر. وفي صباح اليوم التالي (٢١ سبتمبر) صعدت بمفردي إلى قمة هضبة سحلال التي بلغ ارتفاعها حوالي مئتي قدم فوق سطح السهل. تتكون قمة الهضبة من حجر رملي مع غطاء رفيع وصلب جداً من الحجر الجيري، وبسبب الأحوال الجوية وعوامل التعرية الأخرى التي تعرضت لها الهضبة عبر العصور الغابرة فقد تناثرت قطع من هذا الغطاء الحجري وغطت أجزاء من المنحدر. وقد عثرت أثناء البحث وسط هذا الركام المتناثر على بعض الأشكال المتحجرة التي يرجع تاريخها لعصر الأيوسين. كذلك فإن المنظر الخلاب الذي استمتعت به من قمة الهضبة كان كافياً في حد ذاته عن ما سواه من الغنائم التي عثرت عليها.

جلست على الأرض للاستمتاع بهذه المناظر الجميلة وكان معي ما يشجعني على الجلوس والتأمل: ترمس الشاي وعلبة من شرائح الأناناس من جزر الهند الشرقية. وجهت بصري في اتجاه الشمال الغربي لأشاهد، على مسافة بعيدة، قمم مصاير الأربع، وجبل المخاري والبعرورة. وهذه المعالم أظهرت موقع آبار العبر ومنها يمتد

الجرف الشمالي الطويل الذي يمكن رؤيته حتى منطقة خشم مهباد وهضبة القليعة. أما في الاتجاه الآخر فيمكنني رؤية كل الأراضي المرتفعة حتى قعوضة بالناحية الشرقية وخشم رميدة بالناحية الغربية. وتقع بئر عساكر على مسافة قريبة فوق قمة الهضبة إضافة إلى مجرى وادي دهر الواسع المنحدر من بين هذه المرتفعات المصطفة في تناسق وانسجام بديع. وكان باستطاعتي رؤية وادي عساكر (وادي مطار) وهو يلقي عصا ترحاله الطويل أمام كثبان الرمل وبالتالي لم يصبح رافداً مهماً لوادي حضرموت.

وفي حوالي العاشرة صباحاً نزلت من قمة الهضبة إلى المعسكر لمواصلة الرحلة عبر السهل الممتد أمامنا ولم يقطع رتابة سيرنا إلا مجرى وادي مطار. أسرعنا في السير فوق طريق مستقيم لحوالي خمسة عشر ميلاً قبل الوصول إلى نقطة توقفنا التالية عند سلسلة صخرية منخفضة مكونة من الحجر الجيري الصلب، وكنا نرى -حتى من هذه النقطة- قمم جبل مصاير التي تقع حالياً في اتجاه الشمال بالتقريب وعلى مسافة بعيدة خلف الكثبان العالية في الرملة. وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة وصلنا إلى حيث توجد شجرة سنط وحيدة وناشفة بالقرب من طرف الرمال، وقد تمكنا من رؤية بعض الملامح المعروفة لإقليم شبوة.

وصلنا الآن نهاية وادي النقعة وتخطيناه بدون صعاب تذكر وطاردنا غزالة عفرية، كانت تسير بمفردها لمسافة حوالي خمسة أميال وأردياها قتيلة. بعد ذلك تحول السهل الرملي المغطى بالحصى إلى منحدرات رملية منخفضة تكسوها بعض الأعشاب الجافة. وتكسو أطراف مجرى وادي واديان نباتات غزيرة من نوع المرخ والحرمل ولم نندهش كثيراً عندما ظهر أمامنا -وعلى مسافة ليست قصيرة- مجموعة من البشر وسط هذه الصحراء القاحلة والموحشة على ظهور جمالهم. توقفنا ونزل ابن هضبان وابن قنبير واتجها نحوهم للاستطلاع. تتكون المجموعة من رجل من قبيلة الصيعر ومعه شاب من الكرب. عرفنا أن الرجل الكبير سبق أن غادر العبر بمفرده في محاولة للوصول إلى منطقة العوامر البعيدة في اتجاه الشرق والتي يستغرق الوصول إليها مسيرة

أربعة أيام بالجمال. وهناك استولى على جمل وقفل راجعاً إلى آبار العبر بأسرع ما يكون وأخذ معه هذا الشاب ليدله على الطريق عبر الصحراء وبهذه الوسيلة تمكن من الهرب والإفلات بالغنيمة ويأمل التخلص منها في مخيمات كرب وآل بريك بوادي مقاة حيث جذبت المراعي الجيدة أعداداً كبيرة من البدو. إن لعبة الغارة والغارة المضادة التي تزاولها بعض القبائل ما زالت موجودة في هذه المناطق الحدودية البعيدة، وهذا من آثار ونتائج عدم الأمن والاستقرار الذي ساد هذه المناطق. وإن هذه القبائل تتطلع إلى نهاية سريعة لهذه المناوشات القبلية كما هو الحال في نجد.

شاهد أصدقاؤنا الجدد صيدنا الثمين على ظهر البئر وسألوا عن المكان الذي ننوي إقامة معسكرنا فيه وأشرنا إلى منطقة واسعة غنية بالأعشاب والأشجار في مؤخرة مجرى الوادي على مسافة من مكاننا. ولا يبدو كبير أمل في أن يتمكن الرجلان من الوصول إلى مكان معسكرنا المرتقب في وقت يتوافق مع تناولنا وجبة الغداء المنتظرة، غير أننا واجهنا عوائق عديدة في الطريق مما أعاق تقدمنا. بعد ذلك أقمنا المعسكر تحت ظلال الأشجار وتمكن الرجلان من الوصول إلى حيث نعسكر قبل أن نتناول طعامنا وقضوا معنا فترة ما بعد الظهيرة وبعدها افترقنا كل في طريقه. عبرنا دلتا وادي واديان ووصلنا سهلاً مسطحاً وواسعاً وكانت تهب علينا رياح شمالية متوسطة، تجرف أمامنا الرمال في هيئة صفائح بيضاء عريضة. وكان طريقنا ممتداً على خط مستقيم فوق قمة جبل النسر الشرقي السوداء وبعد أن قطعنا مسافة خمسة أميال كانت التلال ومناجم ملح مقاة على مسافة قصيرة على يسارنا، فيما حاصرتنا من الجهة اليمنى تلال ظل الفجا وفجي. وتحولت التربة الرملية إلى سطح يكسوه الحصى وتتخلله مجاري ضحلة لتصريف مياه جرف حراد وحويرد وبينما كنا نقترب من تصر الشرقي دخلنا منطقة كثبان رملية منخفضة تخترقها قنوات تصريف ضحلة. قطعنا مسافة حوالي نصف ميل ضمن تخوم الجبل المحاط بحجر رملي بلوري داكن اللون. بعد ذلك توغلنا بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي لمشاهدة هضبة الكمشة التي تقف

بمفردها في السهل المنبسط. أما الضريح الأبيض الخاص بمحمد بن بريك فقد كان واضحاً من النقطة التي كنا نقف فيها واتجهنا نحو الضريح على سهل صحراوي منبسط عبر هضبة مدعار.

ما تبقى من الطريق كان سهلاً وقبل غروب الشمس بدقائق بسيطة وصلنا إلى معسكرنا في شبوة وقد سعد الزملاء الذين كانوا بالمعسكر لوصولنا خاصة وأن أغلبهم كان في انتظارنا لأكثر من شهر. وقد شاركهم القرويون بهجة عودتنا. وعند نزولنا من السيارتين صافحونا بمد أيديهم وتقبيل جباهنا وكان من ضمن المستقبلين وفد رسمي من عائلة آل عبد القوي وهي من بطون ميوان وقام ابن مدعار بمهمة تقديمهم وتعريفهم وأهدونا أغناماً لذبحها لوجبة العشاء وهذه كانت إشارة اعتذار وتصحيح خطأ عدم إكرامهم لنا وحسن وفادتنا أثناء زيارتنا السابقة لديارهم. وفي صباح اليوم التالي سجلت لهم زيارة خاصة وأهديتهم بدوري (هدية مناسبة). هذا وقد وصل لزيارتنا - في وقت متأخر من الليل- علي بن عفيشة وابنه وكان بصحبتهم نفر قليل من العشيرة وجلسوا حولي وعبروا عن سعادتهم البالغة بلقائي وأطنبوا في ذكر ما يمكن أن يقدموه لي من مساعدات لا تعد ولا تحصى. كما أكدوا استعدادهم بتزويدي بكل ما تقع عليه أيديهم من منقوشات وتماثيل وما شابه ذلك من قطع أثرية إضافة إلى الأغنام، وبذكر الأخيرة مرر يده فوق عنقه كناية عن الذبح. أجبته بعلامات مناسبة كانت مثار ضحك وتندر الجميع وليس هناك أدنى شك من أنهم أشعروني بأن وجودي معهم لقي قبولاً وترحاباً من الجميع وأخبرني هؤلاء الرجال بأن سكان شبوة نزحوا مع مواشيهم إلى المرعي الخضراء الناتجة عن الأمطار والسيول الأخيرة. وأبقيت زواري حتى تناولوا معنا طعام العشاء المكوّن من لحم الغنم وهريس الدخن. وبعد مغادرة الضيوف استغرقت في نوم عميق بعد يوم طويل وشاق قطعنا خلاله حوالي خمسين ميلاً.